رفاعة الطهطاوي .. رؤية من قريب

محمد سليمان:

أهلا بكم في منتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية، أبدأ حديثي بمقولة قرأتها تقول: "الأولى بالباب العالي أن يهتم بتنوير الأذهان أولاً"؛ إن هذا النص أرسله إبراهيم باشا إلى السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٣ وهو الأمر الذي حمل لواءه الشيخ الجليل العالم العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوي. وفي الحقيقة، يعتبر الكثير من الباحثين والدارسين العرب أن رفاعة الطهطاوي هو الأب الروحي للنهضة العربية والتنوير في مصر الحديثة؛ فقد حمل لواء التعريف بالحضارة الأوروبية من خلال ترجمة أمهات الكتب والفكر الأوروبي، كما حمل لواء التحديث من خلال مؤلفاته الإصلاحية. ولن أتحدث كثيرًا عن هذا العالم الجليل لكي أترك المجال للأستاذ صبري أبو علم، ولكنني أشير إلى أن فكر رفاعة رافع الطهطاوي يتسم بثلاثة محاور أساسية في نظري: أولها شمولية النظرة والإحاطة بالظواهر الاجتماعية والسياسية، وثانيها الجمع بين العمل والفكر والخبرة الواقعية، وآخرها المزج بين التراث الإسلامي وبين العلوم العصرية الحديثة وفهمه المستنير للحضارة الأوروبية.

حول الشيخ رفاعة الطهطاوي يتحدث إلينا "طهطاويٌّ" من نوع آخر، ولا أود أن أقدم ضيفنا الأستاذ صبري أبو علم من خلال سردٍ لسيرته الذاتية، فهو غنيٌّ عن التعريف، وهو علمٌ، أبو علم ابن علم، ولكن اسمحوا لي أن ألقبه "العمدة" كما يطلق عليه أصدقاؤه من المثقفين، وكما نطلق عليه هنا في الإسكندرية، والعمدة هنا بمعنى العميد؛ فهو التدفق والعفوية وهو القدرة على التقاط المواقف وتقييم الشخصيات بطريقة لاذعة أحيانًا وودودة أحيانًا أخرى، لكنه في كل الأحوال صادقٌ مع نفسه، فهو بناء أرساه منذ طفولته أبوه الشاعر وإحساسه المرهف وحبه للحياة، وهو أيضًا راوي سِيَر وصاحب ذاكرة قوية، وهو يمتلك روحًا مرحة تحبب فيه الجميع وله

عطاء بلا حدود وبلا مقابل، فهو يدير الثقافة بروح الشاعر المبدع، ولا غريب في هذا فهو ابن السرابيوم، وهو أيضًا الذي قام برحلة في المرحلة الثانوية سيرًا على الأقدام حول الجمهورية طالبًا العلم والتعلم والثقافة، هذا هو الأستاذ صبري أبو علم الذي ترعرع في أحضان كل الثقافات المصرية وهضمها وأعاد إنتاجها، فقد تأثر بكل من ثقافة الصعيد وثقافة الريف وثقافة المدينة وثقافة الواحات.

ولضيفنا إصدارات عديدة منها "قصائد حب"، وديوان "باقات من الوفاء"، ودراسة عن نزار قباني، والعديد من المسلسلات الدرامية بإذاعة البرنامج العام، وقصائد شعر بإذاعة الشرق الأوسط، ودراسات أنثروبولوجية أدبية بالمجلات الأدبية والفنون الشعبية، كما شارك في تحرير العديد من المجلات الثقافية، إلى آخر هذا التاريخ الطويل، إنني أجد نفسي أواجه مشكلة حقيقية في تقديم هذا العلم، ولكني لن آخذ من وقته الكثير وإنما سأدعه ينطلق كعادته ليطوف بنا في حقبة من الزمن ظهر فيها أمثال الشيخ رفاعة الطهطاوي.

صبري أبو علم:

أولاً أشكر الصديق العزيز الدكتور محمد سليمان ولا أعلم كم قضى من الوقت المتاح له لكي يطلع على أخباري، فقد أتى وهو يحمل مسئولية كبرى، فقد كان مسئولاً عن مؤتمر النشر التراثي الذي انتهى أول أمس (٧ مايو ٢٠٠٩) وكان في قمة الانشغال في الإعداد لهذا المؤتمر، وعلى الرغم من ذلك فقد أتى لكي يدير الحوار الذي أشرُف بالاشتراك فيه اليوم. أيضًا، أود أن أبدي سعادتي بهؤلاء المثقفين وصفوة المجتمع السكندري، وسوف أرحب بثلاثة أشخاص على وجه التحديد لهم صلة بالشيخ رفاعة الطهطاوي؛ أرحب أولا بحفيده اللواء مصطفى أبو سديرة، وهو حفيده من إحدى بناته، وأرحب بأستاذي الكبير محمود الملاح، وهو أستاذ سكندري انتقل إلى طهطا عام ١٩٥٨ ليعمل أستاذًا للغة العربية بمدرسة رفاعة الطهطاوي الثانوية، وشهد أكبر احتفالية بالشيخ رفاعة الطهطاوي بمناسبة مرور ٨٥ عامًا على وفاته، وكانت مدرسة الليسيه الفرنسية هي التي اهتمت بهذا الاحتفال وكان الدكتور مصطفى فهمي رئيسًا للمدرسة في ذلك الوقت فأقام احتفالية كبرى بالإسكندرية عام ١٩٥٧، ووقتها، ذهب الدكتور مصطفى فهمي إلى الأستاذ يوسف السباعي وأقنع المجلس الأعلى للثقافة بالاحتفال في طهطا في مايو عام ١٩٥٨، وكنت في ذلك الوقت قد وصلت إلى طهطا بعد أن تركتها في المرحلة الابتدائية متجهًا إلى الواحات الخارجة والإسكندرية، وعدت إليها في المرحلة الثانوية فوجدت أستاذي العزيز محمود الملاح الذي كان مميزًا جدًّا لدينا؛ فقد تعودنا على أساتذة آتين من الصعيد لكن هذا الأستاذ كان سكندريًّا في مقتبل عمره وكان أول مدرس لغة عربية يتخرج في كلية الآداب وليس في الأزهر ولا في دار العلوم، وهكذا شهد بنفسه

الاحتفالية الكبرى وشهد تغير اسم المدرسة من مدرسة "طهطا الثانوية" إلى مدرسة "رفاعة الطهطاوي الثانوية". وأخيرًا، أرحب برفيقي الفنان محمد العيسوي ابن سوهاج، الذي رسم هذه الصورة المتخيلة لرفاعة الطهطاوي بالزي الإفرنجي[1]؛ فلا توجد للشيخ رفاعة الطهطاوي صور غير صورته المعروفة بالزي الأزهري التي رُسمت له في فرنسا، فقد ظل طوال حياته متفرغًا للعمل كأنه عبادة حتى توفاه الله عام ١٨٧٣ في حوالي الخامسة والسبعين من عمره، لكن الحقيقة أنه خلع الجبة والعمة وارتدى الزي الإفرنجي، وحضر حفلات الرقص والغناء لدى الأمراء والملوك، كما حضر حفل افتتاح قناة السويس. وقد وجدت مستنديْن خلصت منهما إلى هذه الحقيقة، أولهما لجورجي زيدان الذي ذكر في كتابه "مشاهير الشرق" أنه بعد عودة رفاعة من فرنسا بقليل خلع الملابس العربية ولبس الملابس الإفرنجية المعروفة، وثانيهما مقال لرجل فرنسي سوف أذكره عندما يأتي الحديث عنه. أما عن الزي الإفرنجي الذي يرتديه رفاعة في هذه الصورة المتخيلة وما عليه من نياشين وأنواط فقد جئنا بها من تلميذه صالح مجدي الذي كتب تاريخ الشيخ رفاعة الطهطاوي والذي أصدر كتاب "حلية الزمن في ذكر مناقب خير الوطن"، وصالح مجدي يملك هذه الصورة المشهورة له بالملبس الإفرنجي وما عليه من أنواط ونياشين، فقام الفنان محمد العيسوي بوضع رأس رفاعة الطهطاوي على صورة لملابس صالح مجدي وأظهر لنا هذه الصورة المتخيلة التي أرجو أن تقتنع الصحافة بها وتروجها وتعتبرها صورة رسمية لرفاعة الطهطاوي الذي أطلق عليه الشيخ محمد أبو الأنوار السادات لقب (أبو العزم) لقوة عزيمته.

وفي الواقع، أنه لا خلاف على أن رفاعة الطهطاوي من أهم رواد التقدم في عصر النهضة المصرية، وأنه شكَّل مع حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعلي مبارك وعبد الله النديم وعدد آخر من خريجي البعثات ثريا عظيمة ذات مصابيح ساطعة أضاءت سماء مصر. وقد اعتمد محمد علي على الشيخ رفاعة الطهطاوي في جزءٍ كبير من مشروعاته في مصر، فقد ارتاد رفاعة الطهطاوي فكريًّا المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية والزراعية والصناعية والعسكرية، وتناول هذه الأمور بوعي وانتماء وطني ورحابة أفق، وإيمان بقدرة مصر على التخلص من التخلف والعجز والقدرة على النهوض والتقدم. كما صاغ رفاعة فكر النهضة بأسلوب يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين ثقافة الشرق وثقافة الغرب، وحرص على الجمع بين المناسب والمفيد؛ فالتراث عند رفاعة يجمع ما هو روحي في الدين ومادي في الحضارة وعمراني في المجتمع ووجداني في الأدب، ليصبح كل من الفرعوني واليوناني والروماني والقبطي والإسلامي والعربي والتركي

[1] الصورة في الملحق رقم (١) في نهاية الكراسة.

والفرنسي روافد متعددة تصب في نهر الثقافة المصرية التي صهرت كل هذا في بوتقة مصر، وخطاب رفاعة الطهطاوي الثقافي متماسك، يوظف الفكر والشعر والدين لتنمية مظاهر التحضر في الوعي والسلوك.

ولا تكفي المجالات الرئيسية التي سوف أتحدث عنها للإحاطة بكل جوانب حياة الشيخ رفاعة الطهطاوي، وبشكل عام فإن رفاعة الطهطاوي رائد مجالات الترجمة والتعليم والصحافة، وهي المجالات الثلاثة الأساسية التي كان لإسهام رفاعة الطهطاوي فيها الفضل الأكبر. ومن جانبي، أضيف إليها مجالين لم يتواجدا في الكتب وهما الشعر الوطني والثقافة العامة؛ فهو أول من كتب الشعر الوطني بهذا التكثيف وسوف أعرض عليكم لاحقًا أجزاءً من أشعاره في حب الوطن. أما عن الصحافة، فقد عُيِّن عام ١٨٤١ رئيسًا لتحرير جريدة "الوقائع المصرية"، وقام على إثر ذلك بتعديل نمط الكتابة فيها، فبعد أن كانت اللغة التركية توضع على اليمين واللغة العربية على اليسار، قام بتبديل أماكنهما، وفي رأيي الشخصي لا يوجد فرق بين اليسار واليمين، ولكنه اعتبر أن اللغة العربية هي الأهم فوضعها على اليمين. كما رأى أن الجريدة لا يجب أن تكون إخبارية فقط بحيث تنشر الأخبار الخاصة بالجيش والدواوين وغيرها، وإنما يجب أن تكون ثقافية أيضًا، فبدأ بنشر تحليلات سياسية واقتصادية واجتماعية ومقالات من تأليفه، واستمر ذلك منذ عُيِّن بالجريدة عام ١٨٤١ حتى عام ١٨٥٠، فقام برفع شأن جريدة "الوقائع المصرية" خلال هذه الفترة، وكان محمد علي في ذاك الوقت يفرض الجريدة على كل المصالح، فكانت توضع أمام كل موظف ويُخصَم ثمنها من راتبه، أما الآن فهي تختص بالقوانين فقط فلا نراها كثيرًا.

وفي عام ١٨٧٠ أصبح علي مبارك – وهو تلميذ الشيخ رفاعة الطهطاوي – وزيرًا للمعارف أو "ناظر المدارس" كما كان يطلق عليه، وقرر هذا الناظر العظيم أن ينشئ مجلةً أدبيةً أطلق عليها "روضة المدارس"، وتولى رئاسة تحريرها رفاعة الطهطاوي وظل رئيسًا لتحرير هذه المجلة أكثر من ثلاث سنوات إلى أن توفاه الله عام ١٨٧٣، فكان لأكثر من خمسين عامًا من عمره رائدًا في مجال الترجمة والتعليم.

وأود في هذا السياق أن أشير إلى عنوان الندوة وهو "رؤية من قريب"، والقريب هو أنا؛ فقد كان الشيخ رفاعة صديقًا لجدي الكبير وولداه علي وبدوي كانا صديقين لأبنائه، كما كنتُ صديقَ حفيده فتحي رفاعة واسمه الرسمي رفاعة فتحي محمد بدوي فتحي رفاعة بدوي رافع وهو والد السفير محمد رفاعة الموجود حاليًّا والذي يُطلق عليه رأس العائلة أو كبير العائلة، وكنت أبلغ من العمر ستة عشر عامًا بينما كان يبلغ فتحي رفاعة ستين عامًا تقريبًا. كذلك فقد عشت في بلده طهطا ولعبت أمام منـــزله وكنت صديقًا لأقاربه؛ فمن ناحية أمه، كنت

صديقًا حميمًا لعبد الحق عبد الحق الأنصاري، ولهذه العائلة اسمان: عائلة الأنصاري لأنهم جاءوا من المدينة المنورة، وعائلة القاضي لأن القضاء كان في عائلتهم، وكان منـــزلنا يقع قبل منـــزل رفاعة الطهطاوي في شارع بورسعيد حاليًّا بحوالي خمسة منازل. وأعتقد أنني وعيت لسيرة رفاعة عندما بلغت أربع أو خمس سنوات؛ فقد كان والدي يجلس مع أصدقائه من رجال التعليم والشعراء، وكان كل حديثهم عن رفاعة، وكانوا يستعرضون بعض أشعاره، فكنت أسمع شعر رفاعة منذ صغري. وعندما وصلت للخامسة عشرة من عمري وجدت والدي يضع شعار "روضة المدارس" في لوحة على الحائط:

تعلم العلم واقرأ تحز فخار النبوة فالله قال ليحيى خذ الكتاب بقوة

كذلك رأيت ملحق المساء الذي يشرف عليه الدكتور لويس عوض والذي أجده يأخذ شعارًا لرفاعة يقول: "وليكن الوطن محلاً للسعادة المشتركة بيننا نبنيه بالحرية والفكر والمصنع"؛ فهل نجد من يقول إن الوطن يُبنى بالحرية في القرن التاسع عشر؟ وبالفعل فالحرية هي أولى الأولويات، يليها الفكر ثم الصناعة، وعلى الرغم من أن بلده مصر كانت زراعية إلا أنه أدرك أن الصناعة تعمل على تقدم الوطن. وهكذا، كان من الطبيعي أن أدرك منذ صغري من هو رفاعة الطهطاوي، وليس معنى هذا أن كل أبناء جيلي من طهطا مدركون من هو رفاعة، بل كان هذا اهتمامي الخاص، إلى أن جاءت الاحتفالية الكبرى عام ١٩٥٨ والتي حضرها أستاذي محمود الملاح – والذي أود أن أسمع تجربته خلال مداخلته– فوجدنا كلا من يوسف السباعي ومهدي علام وسليمان حزيـــِّن وعبد الوهاب عزام وزكريا الحجاوي وإيهاب الأزهري ومصطفى فهمي الذي كان رئيسَ مدرسة ليسيه الإسكندرية، وشخصيات كبرى أخرى جاءوا إلى طهطا، وكانت هذه المرة الأولى لي التي أرى فيها شخصيات كبرى في ذلك الوقت، واستمرت الاحتفالية لمدة يومين؛ يوم في طهطا والآخر في سوهاج، وتم افتتاح مكتبة رفاعة الطهطاوي في طهطا وقد جعلها حفيده فتحي رفاعة في إحدى غرف القصر الموجود في شرق البلد. وبعد انتهاء الاحتفالية، قررت إجراء بحثٍ عن رفاعة الطهطاوي من الوجهة النفسية؛ فرفاعة مات منذ ٨٥ عامًا –في هذا الوقت–، فأردت مقابلة أشخاصٍ جلس آباؤهم أو أجدادهم مع رفاعة الطهطاوي وتحدثوا معه، فبحثت عن هؤلاء الذين في إمكانهم أن ينقلوا لي التراث الشفهي الموجود عن رفاعة الطهطاوي. وخلال جمعي لهذا التراث قيل لي إن الأستاذ فتحي رفاعة يأتي إلى طهطا في رمضان من كل عام ويجلس الشهر كله فيها، وإن هذا الشخص هو من يمكنني أن آخذ منه المعلومات التي أبحث عنها، وبالفعل قابلته في عام ١٩٦٠، وأهداني كتابًا لا يملكه أحد في الوقت الحاضر سجل فيه فتحي رفاعة الاحتفالية، وعندما تراني أتحدث جيدًا عن الاحتفالية فذلك لأن لدي هذا

الكتاب الذي تم تسجيل الاحتفالية به والذي ذكر به أسماء فواز عمران والسيد جوهر وغيرهما من أساتذتي. لقد أهداني الأستاذ فتحي رفاعة هذا الكتاب في ١٤ نوفمبر ١٩٦٠ وكتب لي إهداءً بخط يده يقول فيه: "إلى الشاب النجيب الأريب صبري أبو علم الطالب بمدرسة رفاعة الطهطاوي الثانوية مع أطيب التمنيات، فتحي رفاعة الطهطاوي حفيد رفاعة الطهطاوي"، ولقد زودني هذا الكتاب ببعض المعلومات المفيدة.

ومن الطريف أن أول من سجل تاريخ رفاعة الطهطاوي هو تلميذه صالح مجدي، ولم ينشر كتابه (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وأودع مخطوطه دار الكتب، أما أول من نشر كتاب (رفاعة الطهطاوي بك) فهو الدكتور أحمد بدوي ونال به جائزة مجمع اللغة العربية عام١٩٥٠. ولم يذكر صالح مجدي عن أبناء رفاعة سوى بدوي فتحي وعلي فهمي وكالعادة لم يذكر البنات، أما الأستاذ فتحي رفاعة في كتابه (لمحة تاريخية) فقد ملك الشجاعة ليذكر أسماء عماته الست وأخواته الست على شقيق واحد. وعندما قابلت فتحي رفاعة، ذكرت له الدراسة التي أقوم بها وما أنوي جمعه من التراث الشفهي المعروف عن رفاعة الطهطاوي، ولقد أحبني فتحي رفاعة وكنت مداومًا على زيارته، وكان يعمل مدرسًا للغة الفرنسية في كلية الألسن بالقاهرة رغم تخرجه في الحقوق، وكان كلما جاء إلى طهطا يبعث لي بسكرتيره محمود أبو القاسم الطرابيشي ويطلب مقابلتي فأذهب له. وأذكر في إحدى المرات أنه طلب مني أن آتي لتناول إفطار رمضان معه وكان يقيم ما يشبه مائدة الرحمن في الوقت الحالي، فسألته إذا كان سيأكل معي فنفى، وعندها أجبته بأنه لو دعاني لكي أتناول الإفطار معه فسوف آتي، فمائدة الرحمن للغرباء والفقراء وأنا لست غريبًا ولا فقيرًا، بل أنا في بلدتي، فأُعجب بي كثيرًا.

وفي عام ١٩٦١ كان فتحي رفاعة في طهطا حين أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قرارات تحديد الملكية الزراعية الثانية؛ فقد كانت الملكية الزراعية في القرار الأول في ١٩٥٢/٩/٩ مائتي فدان للفرد، وكان رفاعة الطهطاوي قد ترك حوالي ألف وستمائة فدان وصلت كاملة لفتحي حيث أنجب جده علي بنتًا واحدة فقط وهي نفيسة، وأخوه بدوي أنجب محمدا وست بنات كما قلنا، وتزوج محمد نفيسة ابنة عمه، وهكذا فإن الأرض التي انقسمت على اثنين رجعت مرة أخرى أرضًا واحدة، وكما تعلمون، فالبنات لا يأخذن حقهن في الأرض، بل يديرها لهن أخوهن ويعطيهن الريع، فاجتمعت الثروة في النهاية عند فتحي رفاعة. وقد نجح فتحي رفاعة في التعامل مع قانون تحديد الملكية الزراعية الأول، فكان يأخذ مائتي فدان وتأخذ زوجته مائتين ويأخذ كل ولد من أولاده الخمسة مائتين، كما كان يكتب لبعض الخدم أو الحشم الأوفياء بضعة فدادين فكان بهذا يحافظ على الثروة من الخروج من تحت يده، أما في قرار عام ١٩٦١ والذي تحددت فيه الملكية الزراعية بمائة فدان للأسرة التي تتكون من

الزوج والزوجة والأبناء القصر فكان من الصعب أن يحافظ على هذه الثروة. وقد جلست معه في اليوم الثاني لإصدار القرار وتحدثت معه عنه، وذكرت له أن هذا القانون سيحاصره بشدة وسوف يضعه في موقف حرج وسألته عن شعوره، وكنت وقتها في السابعة عشرة من عمري ولا أعتقد أن الوقت كان مناسبًا لكي أطرح هذا السؤال في قمة هذه المأساة، وقد عنفني قائلاً إنه لا يسمح لي بأن أسأله هذا السؤال ونصحني بأن السياسة لعبة خطيرة وأنه من الأفضل لي أن أهتم بدراستي، وقد حاول سكرتيره وقتها أن يلطف من حدة الموقف موضحًا ما كان لدي من حب استطلاع وفضول وحب البحث. ووصلت في دراستي عن رفاعة الطهطاوي إلى الوصية التي كتبها فتحي رفاعة قبل وفاته فوجدته موصيًا بجزءٍ من أراضيه لبعض العاملين معه. وبالطبع بعد الموقف الذي ذكرته خرجت حزينًا لأنني أغضبت الأستاذ فتحي وأخذت عهدًا على نفسي ألا أذهب إليه إلا إذا أرسل يطلب رؤيتي كعادته، ولكنه لم يرسل لي خلال هذا العام، ثم هاجرت بعدها إلى الإسكندرية في عام ١٩٦٢ ولا أعلم إذا كان قد أرسل من يسأل عني أم لا، ثم توفاه الله في أواخر الستينيات ومازلت أشعر بالحزن لأنه مات غاضبًا مني.

ورجوعًا إلى رفاعة الطهطاوي، فسوف أبدأ بالتراث الشفهي أولاً؛ فقد قيل لي إن الناس كانوا يتباركون برفاعة وهو طفل صغير؛ فكان أصحاب المزارع الكبيرة يطلبون من والده أن يأتي ومعه رفاعة ليجلس معهم، فكان يأخذ الطفل وهو في الثالثة أو الرابعة من عمره ويجلس به في المزارع حيث كان في اعتقاد المزارعين أن وجوده له تأثير إيجابيّ في الزراعة. وعندما ولد رفاعة كان والده ميسور الحال، وأتصور هنا أن الشخص الميسور الحال في ذلك الوقت كان يملك حوالي عشرة فدادين، وعندما جمع محمد علي الأملاك الزراعية في يده، أُخذت الأرض من والده فأصبح معدمًا غير قادر على استمرار العيش في طهطا، وهنا، أخمن أن والد رفاعة الطهطاوي لم يكن من طهطا، لأننا لا نتداول غير سيرة عائلة أم رفاعة الطهطاوي "الأنصاري"، وهكذا ترك رفاعة طهطا مع والديه واتجهوا إلى عائلة والده عائلة ابن أبي قطنة في منشية النيدة بالقرب من جرجا – وهذا كلام الكتب – وأقاموا عند أقاربه من أعمامه وأولاد أعمامه، ثم ذهب والده ليعمل في قنا، ثم رجع إلى العمل في فرشوط فاشتغل بأعمال جوالة كبيع القماش في الأسواق، ثم توفي الوالد حين كان رفاعة في الثامنة من عمره، فعادت والدته به إلى طهطا في حضن عائلتها "الأنصاري"؛ وهي – كما قلنا – واحدة من كبرى العائلات الموجودة في طهطا. وكان رفاعة في هذه السن قد حفظ القرآن، وتولاه أخواله الذين كانوا من علماء الأزهر، وقد صار خاله فقيهًا للديار المصرية في عهد حسن العطار، وبقي رفاعة في طهطا حتى سن ستة عشر عامًا ذهب بعدها إلى الأزهر بالقاهرة حيث كان لديه خالاه الأستاذان في الأزهر، وإذا به يلتقي بالرجل العظيم في حياته وهو الشيخ حسن العطار الذي أصبح شيخًا للأزهر. وعندما أتت الحملة الفرنسية إلى مصر هرب الشيخ حسن العطار مع الذين هربوا إلى الصعيد

وأسيوط، لكنه اقتنع بعد ذلك بأنه يجب أن يتعاون مع الفرنسيين، فبدأ في تعليمهم اللغة العربية وتعلم منهم اللغة الفرنسية فارتبط بالفرنسيين ارتباطًا شديدًا أثار عليه سُخط المصريين الذين اتهموه بالتعاون مع الأعداء، وعند خروج الحملة الفرنسية عام ١٨٠١ خرج معها الشيخ حسن العطار الذي قرر عدم البقاء في مصر حتى لا يقتله المصريون لأنهم لا يدركون ما كان يفعله من الناحية الثقافية، وبقي في الخارج لمدة خمسة عشر عامًا ذهب خلالها إلى أرمينيا ورومانيا وسوريا وعمل بالتعليم وتزوج في الخارج، ثم عاد إلى مصر حوالي عام ١٨١٥ بعد أن تقلد محمد علي الحكم لأنه رأى أنه يستطيع أن يكون في حمى حاكم قوي على قدر من الإدراك. والتحق رفاعة الطهطاوي بالأزهر في عام ١٨١٦، وكان أستاذه العظيم الشيخ حسن العطار مختلفًا عن بقية المدرسين، فهو يُدرِّس التاريخ والآداب والجغرافيا مع الفقه والسنة والسيرة والشريعة، ووجد حسن العطار هذا الشاب النجيب رفاعة الذي كان قصيرًا وألثغ في الراء، فتوسم فيه الخير والنبل وترك له عنوانه ليأتيه في درب الجماميز، فبدأ رفاعة التتلمذ على يده وتلقى دروسًا متنوعة في الأدب والتاريخ والجغرافيا. وأصبح رفاعة أستاذًا في الأدب والتاريخ قبل تخرجه من الأزهر، وكما قلنا فقد كان فقيرًا يحتاج إلى المال، فبدأ في إعطاء الدروس الخصوصية، فكان يسافر إلى حلوان لأبناء أحد المماليك وإلى ملوي وإلى المنيا، كما كان يذهب إلى طهطا في شهر رمضان ويدرِّس في جامع أبو القاسم الطهطاوي، وأبو القاسم هو جده لأمه والجامع المسمى باسمه هو الجامع الأهم في طهطا. وهكذا اجتُذب الجميع إليه لحسن أسلوبه وكثرة معلوماته، بعد ذلك، تخرج رفاعة في الأزهر، وتم تعيينه بواسطة الشيخ حسن العطار الذي كان قد أصبح وقتئذ جليسَ الوالي محمد علي في الجيش ملازمًا أول حتى وصل إلى رتبة اللواء (المتمايز) في عهد الوالي سعيد.

وفي عام ١٨٢٦، كان محمد علي باشا يستعد لإرسال البعثة الكبرى الأولى إلى فرنسا، حيث كان قد أرسل بعثات صغيرة إلى إيطاليا وروسيا، وكانت هذه البعثة هي البعثة الأولى الكبرى التي تضم أبناء محمد علي وأبناء الأمراء وكبار رجال الحكم، وهكذا، اقترح حسن العطار على محمد علي أن يختار رفاعة إمامًا لهذه البعثة، وبالفعل ذهب رفاعة مع البعثة التي وصلت إلى الإسكندرية في أربعة أيام على صفحة ماء النيل، واستقر أفرادها في قصر رأس التين عشرة أيام استعدادًا للسفر، فنـــزل رفاعة إلى الإسكندرية متجولا حتى شارع النبي دانيال وتصفح بعض الكتب القديمة هناك حتى وجد كتابًا عن كيفية تعلم الفرنسية بدون معلم، وعلى الرغم من أن دوره في هذه البعثة كان إداريًّا فقط لكنه اشترى الكتاب، وأخذ رفاعة يعلم نفسه بنفسه اللغة الفرنسية طوال الرحلة التي استمرت أربعين يومًا على متن السفينة من الإسكندرية إلى مرسيليا، وكان مرافقوه في الرحلة يسخرون من هذا الشيخ الألثغ الذي يتعلم الفرنسية، ولكن عند وصولهم إلى فرنسا كان رفاعة هو الوحيد الذي يستطيع التفاهم مع

الفرنسيين ببعض الكلمات التي تعلمها. وكانت مكافأة رفاعة في هذه البعثة ٢٥٠ قرشًا في الشهر دفع جزءًا منها ليستأجر معلمًا للفرنسية يعطيه دروسًا خصوصية وتفوق رفاعة على من معه في اللغة الفرنسية حتى أجادها. وكان مسيو جومار رئيسًا لهذه البعثة، وهو أحد علماء الحملة الفرنسية الذين كانوا في مصر وأشرفوا على كتاب "وصف مصر"، وبعد انتهاء الحملة أعجب بمحمد علي وبمصر فقرر البقاء فيها. ذهب رفاعة الطهطاوي إلى جومار طالبًا منه الانضمام إلى البعثة طالبًا للعلم، فاستأذن جومار الوالي محمد علي الذي وافق بدوره على انضمام رفاعة للبعثة، فتحول رفاعة الطهطاوي من مجرد إمام للبعثة إلى طالب علم فيها. ومن أصدقاء رفاعة الطهطاوي دي ساسي، وهو مستشرق فرنسي وعالم باللغة العربية صديق لبعض كبار الشخصيات الثقافية. وهكذا نعجب من هذا المصري القصير الأسمر الذي يملك عقلاً حادًّا والذي قال شعرًا:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي من وصل غانية وطيب عناق

ودائمًا نرى من يجتهد كثيرًا ويبذل مجهودًا ضخمًا ينجح، ثم يظن آخر أن بإمكانه الحصول على هذا النجاح دون اجتهاد، وهنا يكمل رفاعة:

أأبيت سهران الدجى وتبيته نومًا، وتبغي بعد ذاك لحاقي

وفي هذا السياق، أود أن أشير إلى صفة إنسانية رائعة في الشيخ رفاعة الطهطاوي؛ فقد أتى من الأزهر ذاهبًا مع البعثة إلى مرسيليا وفي الطريق مرت السفينة بمدينة مسّينا بإيطاليا ومكثت بها أربعة أيام، وتزامن هذا الوقت مع عيد عند المسيحيين، فسمع رفاعة أجراس الكنائس تدق احتفالا بالعيد، ودعونا نقرأ ما كتبه وهو يحكي هذا المشهد: في اليوم الخامس عشر رسونا على مدينة مسينا والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدًا حيث إننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا حتى أن ضربهم النواقيس مطرب جدًّا، وفي تأثر النفس بضرب الناقوس إذا كان من يضرب الناقوس ظريفًا يحسن ذلك وقد أنشدت في هذا المعنى قول الشاعر:

من جاء يضرب بالناقوس قلت له من علَّم الظبي ضرب النواقيس
وقلت للنفس أيّ الضرب يؤلمك ضرب النواَقيس أم ضرب النوى قيسي

ويقصد "بالنوى" البُعد؛ فهذا الشيخ المسلم الذي تعود على صوت الأذان الجميل نتوقع أن يزعجه صوت أجراس الكنائس، ومع ذلك لم ير رفاعة الطهطاوي هذا، وإنما شعر بالتناغم الإيقاعي في ضرب هذه الأجراس فامتدحه، وعندما استشهد بأبيات الشعر القديمة السابق ذكرها فقد رأى أن ضرب البعاد أقوى من ضرب الأجراس، و لم ير رفاعة الطهطاوي ضرب النواقيس إلا أمرًا جميلاً، وهذا يدل على ما لديه من قدرة على التكيف وتفهم ثقافة الآخر.

وفي عام ١٨٥٨، زار الصحفي الفرنسي لويس دي لاتر مصر، وأشار عليه السفير الفرنسي بمقابلة رفاعة الطهطاوي باعتباره أهم المهتمين بالثقافة الفرنسية، وبالفعل قابله لويس ونشر عنه مقالا بالجريدة التي يملكها كتب فيه: "هو رجل قصير القامة في نحو الخمسين من عمره، تنبئك عيناه المتوقدتان بروحه الحيّة، وقد عاد عليه قصر قامته بالضرر أكثر من مرة في بلدٍ لا تقدَّر فيه قيمة الرجال الأدبية بل بضخامة أجسامهم." كان هذا رأي الكاتب الفرنسي في رفاعة الطهطاوي، وعن الضرر الذي تحدث عنه فنحن نعلم قصة نفيه إلى السودان عام ١٨٥٠ وقد يكون هذا هو الضرر المقصود هنا، ويكمل الصحفي حديثه فيقول: "وذات صباح جميل، أُنبئت بأن رفاعة ينتظرني على صهوة جواده عند باب الفندق فامتطيت حمارًا وانطلقنا." وتخيلوا معي هذا المنظر، فرفاعة يذهب إلى عمله راكبًا حصانًا حيث يقع بيته في منطقة المَهْمَشة (وهي الشرابية في الوقت الحالي)، وكان وقتئذ عميدًا للكلية الحربية، وبجواره يركب الصحفي حمارًا، يتحدثان في طريقهما حتى وصلا للمدرسة فيكمل الصحفي: "ووصلنا إلى بناء كبير مطليّ باللون الأبيض، كان ذلك مقر المدرسة، ويقودني رفاعة بك من فصل إلى فصل وفي جميعها يسود نظامٌ كامل، وأسأل التلاميذ في الفرنسية والإنجليزية والألمانية فيجيبون على أسئلتي بطريقة مُرضية جدًّا، ثم أمليت عليهم بضع جمل بهذه اللغات فكتبوها دون أدنى خطأ. ويرجع ازدهار المدرسة إلى مثابرة رفاعة بك وحده، فإنها لا تغيب لحظة عن خاطره وهو لا يتوقف عن شحذ همة الأساتذة والتلاميذ، ففي المدارس كما في المصانع يتوقف كل شيء على الإدارة الحازمة والحكيمة." ويقول الصحفي في آخر مقاله: "لو كان في حوزة مصر خمسة رجال مثل رفاعة بك لكسبت الحضارة قضيتها، لكن رفاعة وحده يحسده زملاؤه العلماء ويكرهونه، ولن يوجد من يصلح ليحل محله فإن الحضارة الأوروبية تخيفهم لأنها تعتمد على حرية النقد." كان رفاعة يمثل الحضارة الأوروبية، ولذلك كرهه زملاؤه حيث أتى لهم بالفكر الذي لا يتقبلونه، ولو قرأتم كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وهو يترجم الدستور الفرنسي، تجدونه يتحدث عن عدم حرية الحاكم، وأن الحاكم والمحكوم يخضعان للقانون سواء بسواء، ويمكن للحاكم أن يقف أمام القضاء، ويقال هذا الكلام في وقتٍ تسود فيه الهيمنة.

تزوج رفاعة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، فبعد وفاة أستاذه حسن العطار الذي أصبح شيخًا للأزهر رأى رفاعة أن أكبر خدمة يمكنه القيام بها —من وجهة نظر ذلك العصر— هي أن يتزوج أرملته حتى يعيلها، وكانت زوجة حسن العطار سورية الجنسية فاتفقا على الزواج بصورة سرية، وفي يوم الصباحية أراد إكرامها بعقليته المصرية فألقى بكيسٍ من المال عليها فغضبت وطالبته بالطلاق فطلقها. وبعد هذه الحادثة أراد أن يتزوج من ابنة خاله الذي كان أستاذه في الأزهر، فطلبها من خاله الذي أخبره أنه سيُعلمها ليعرف رأيها، مما يدل على تحضر هذا الخال، فأجابت ابنة خاله بشرطٍ واحد وهو ألا يتزوج عليها امرأة أخرى، فوافق رفاعة على شرطها وكتب هذه الوثيقة المعروضة أمامكم بخط يده وهي كما يلي[٢]:

"التزم كاتب الأحرف رفاعة بدوي رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلي الأنصاري، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا ما كانت، وعلقت عصمتها على أخذ غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى، فإذا تزوج بزوجة أيا ما كانت، كانت بنت خاله بحجة هذا العقد خالصة بالثلاثة، وكذلك إذا تمتع بجارية ملك يمين، ولكن وعده وعدًا صحيحًا لا ينتقض ولا ينتهك أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة، مقيمة على الأمانة والحفظ لبيتها ولأولادها ولخدمه وجواريها، ساكنة مقره في محل سكناه، لا يتزوج بغيرها أصلاً، ولا يتمتع بجوار أصلاً، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضي الله لأحدهما بقضاه، هذا ما انجعلت عليه العهود، وشهد الله سبحانه وتعالى وملائكته ورسله، وإن فعل المذكور خلافه كان الله تعالى هو الوكيل العادل للزوجة المذكورة، يقتص لها مني في الدنيا والآخرة، هذا ما انجعل عليه الاتفاق، وكذلك إن أتعبته فهي الجانية على نفسها."

وفي رأيي أن هذا العقد متوازن؛ فإذا كان قد قبل شرطها بألا يتزوج عليها فقد وضع لها ثلاثة شروط حتى يستمر معها وافيًا بهذا الوعد، وهذا من حق المرأة في الإسلام لكننا لا نعمل به، فحق الخلع مثلاً أثبتت النصوص أن النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي صرح به ولكن المسلمين لم يعرفوه إلا سنة ٢٠٠٠، فقد عشنا ١٤٠٠ سنة في ظل الإسلام ولا توجد لدينا أدنى فكرة عن أن للمرأة الحق في الخلع كما للرجل الحق في الطلاق، ونحيي في هذا السياق جهود السيدة الفاضلة سوزان مبارك.

[٢] صورة وثيقة زواج رفاعة الطهطاوي بخط يده في الملحق رقم (٢) في نهاية الكراسة.

هناك موضوعان أود أن التحدث فيهما بشيء من التفصيل يتعلقان بآراء رفاعة في المرأة وفي القراءة؛ فحين نقرأ ما كتبه في كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" عن المرأة نتساءل عن أسباب عدم ظهور مثل هذا الكلام إلى النور فهو يقول: "استعاضت المرأة عن بنيتها الضعيفة بقوة عقلها وحدَّة إحساسها وإدراكها، وإذا كانت المرأة ذات معارف زاد عقلها كمالاً على ما تعرفه، وتعلم الأدب في النساء والرجال جميعًا لكنه في النساء أحسن لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية." ويقول أيضًا في موقع آخر: "إن عفة النساء لا تأتي من كشفهن ولا من سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة أو التعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين." وعندما كان عضوًا في ديوان المدارس عام ١٨٣٧ اقترح إدخال تعليم البنات في مصر، ولكن محمد علي اكتفى بإنشاء مدرسة الولادة لتدريب الممرضات، ونفذ الخديوي إسماعيل الفكرة فأنشأ مدارس البنات. كذلك يقول رفاعة الطهطاوي في تعليم البنات: "للتعليم أثر قوي في إسعاد بيت الزوجية وحسن معاشرة الأزواج، وآداب المرأة ومعارفها تؤثر في أخلاق أولادها، وإن التعلم يهيئ للمرأة سبيل العمل فتعمل ما يعمله الرجال على قدر قوتها وطاقتها إذا دفعتها الحال إلى ذلك، وهذا يشغلها عن البطالة فالعمل يصون المرأة ويقربها من الفضيلة." ولعلنا نشعر أن هذا الكلام عكس ما هو شائع في المجتمع، ويكمل رفاعة حديثه فيقول: "وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمةٌ عظيمة في حق النساء، فإن المرأة التي لا عمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها في سفاسف الأمور فيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون." كذلك يتحدث رفاعة الطهطاوي عن الحب بين الرجل والمرأة فيقول: "الحب في مبدئه اختياري وبعد ذلك يصير اضطراريًّا، والعشق قسمان، عشق الحواس وعشق القلب، وللعشق مكارم أخلاق تتفرع منه وتُنسَب إليه، والعاشق العفيف الصابر الكاتم إذا مات نال الشهادة، الحب ليس بمستنكر في الدنيا ولا محظور في الشرع وينبغي أن يكون الحب ودادًا صافيًا خاليًا من الشوائب." وهكذا نرى أن نظرة رفاعة إلى المرأة والحب وغيرها من الأمور في هذا الوقت كانت نظرة غير عادية، وكان يرى أن جماع مكارم الأخلاق الاجتماعية منحصر في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وهذا الحديث باقٍ وخالد ولكن هل سلوك البشر هكذا؟ وفي شرح هذا الحديث يقول رفاعة: "لأن الرجل الصالح المستقيم لا يقتصر على الكف عن فعل الشر بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه هي فعل الخير والمعروف ويؤمن بقول الرسول: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا." كما طالَب رفاعة بإنشاء الجمعيات الأهلية لفعل الخير وخدمة المجتمع.

وتوجد لدي بعض الملاحظات حول كتابات أخرى عن رفاعة الطهطاوي يوجد في بعضها شططٌ وعلى القارئ الفاحص إدراك هذا. فقد أصدر صديقي الصحفي محمد الشافعي كتابًا عن رفاعة الطهطاوي في العام

الماضي، وقد قرأت الكتاب – بصفتي خبيرًا في رفاعة – بناءً على طلب كاتبه، ووجدته يذكر في الكتاب أن رفاعة جاء إلى القاهرة مع أمه، وحين سألته كيف عرف أن رفاعة جاء مع أمه، أجابني بأنه من المنطقي ألا يُترك طفلٌ ليسافر إلى القاهرة بمفرده، فأجبته بأن بالقاهرة الكثير من طلاب الجامعات القادمين من الوجه البحري أو القبلي بمفردهم وأن والدة رفاعة لم تذهب معه. ومن التراث الشفهي، توجد قصة مضحكة عن والدة رفاعة، فقد كان رفاعة يحب وجبة "المعاش" وهي أحشاء الحيوان، وعندما سافر رفاعة إلى القاهرة ليدرس بالأزهر، ولم يكن لدى والدته المال الكافي لشراء هذه الوجبة، وعندما توفر لديها المال اشترتها وطبختها ووضعتها في طاقة بأحد جوانب المنـــزل في انتظار عودة رفاعة، وعند زيارة الأقارب والجيران اشتموا رائحة كريهة بالمنـــزل وعندما سألوها عن مصدرها اكتشفوا أنها وضعت المعاش في هذا المكان وأنه تعفن مع مرور الوقت. وعن باقي ملاحظاتي حول الكتابات المختلفة عن رفاعة الطهطاوي؛ فقد كنت أشاهد مسلسل "علي مبارك" الذي ألفه صديقي الكاتب محمد السيد عيد، والذي عُرض في رمضان الماضي، فوجدته قد أثار تساؤلاً حول عدم دعوة رفاعة الطهطاوي لحفل افتتاح قناة السويس على الرغم من أنه قد حضره بل وكتب فيه شعرًا، وعندما قابلت محمد السيد عيد تحدثت معه حول هذه النقطة فابتسم قائلاً إنه لم يعلم ذلك حين كتب المسلسل وقد أراد خلق موقفٍ دراميّ، لكنه علم بعد ذلك بأن رفاعة قد حضر هذه الاحتفالية. وفي هذا السياق، أود الإشارة إلى أنه لا يجب أخذ التاريخ من الدراما، ولا أقصد هنا ألا نستمتع بالدراما، فعندما واجهت محمد السيد عيد لم يصر على كلامه الذي ذكره في المسلسل بل اعترف ببساطة بعدم معرفته بهذا الأمر وأنه قد اضطر لوضع هذه الحبكة الدرامية؛ فالدراما عادةً ما تحوي مواقف تخيلية. على سبيل المثال، في فيلم "ناصر ٥٦" سألت الكاتب محفوظ عبد الرحمن عن حقيقة موقف السيدة الصعيدية التي ذهبت إلى الرئيس جمال عبد الناصر في مكتبه وأعطته ثوب جدها الذي مات في أثناء حفر قناة السويس، فأجابني بأنه موقف تخيلي، وحين ذكرته بأنه من الممكن أن يأخذ الجمهور هذا الموقف على أنه قصة حقيقية أجابني بأنه يقوم بعمل درامي لكي يخلق مواقف جديدة يصبح بها المشهد مثيرًا للمشاهد. كما سألته أيضًا عن مشهد في مسلسل "بوابة الحلواني" بخصوص والدة الخديوي إسماعيل حين أحبها نيازي بك الذي كان يقوم بدوره الفنان حسن مصطفى – كما صوَّر المسلسل – وكان يغازلها وطلب أن يلمس شعرها، وبعدما وافقته أمرت الطبيب بأن يقطع يده، وسألته عن حقيقة هذا الموقف فقال إنه تخيلي أيضًا. وفي هذه القضية أريد أن أؤكد أننا لا يجب أن نتعامل مع شخصيات الدراما على أنها حقيقية وهناك بالطبع وقائع حقيقية إلى جانب هذه الوقائع المتخيلة.

ويعد رفاعة الطهطاوي أول من أثار قضية الوطنية؛ فقبله كانت الخلافة الإسلامية هي السائدة، وكانت الهوية الإسلامية هي هوية المسلمين؛ فالمصري المسلم يعتبر المسلم التركي أقرب إليه من غيره، لذلك فقد كانوا يرحبون بالاحتلال العثماني، هذا بالطبع مع وجود قلة لم ترحب بهذا الاحتلال ولكن بشكل عام كان هناك استسلام للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين ويحكم باسم الإسلام، هذا بعكس موقف الشعب المصري عند مجيء الحملة الفرنسية، فقد وقف الشعب كله ضدها ورفضها لأنه اعتبرها مناصرة للكفار، ولكن اختلف رفاعة في نظرته للأمور فكان أول من كتب في الوطنية شعرًا ونثرًا، ويقول في إحدى نثرياته: حب الوطن من الإيمان ولأرضك حرمة وطنها كما لوالدتك حق لبنها فإني وإن ألبستني المحروسة نعمًا ورفعت بين أمثالي علمًا فلا زلت أتشوق إلى وطني الخصوصي ولا أساوي طهطا الخصيبة بسواها. كما قال شعرًا:

وطننا تعززا وبالهنا تحيزا
هل غيره مميزا بسهله الممتنع
أكرم بمصر من حمى علاه قد سما السما
مربعه لقد سما فيا له من مربع
فمصر ما أجلّها الكل يهوى وصلها
فإن رنت عين لها نفقؤها بالإصبع

واستشهد رفاعة بقول الشاعر كمال الدين الإدفوي:

أحن إلى أرض الصعيد وأهله ويزداد وجدي حين تبدو قبابها
كان بها الشباب مساعدي على نيل آمال عزيز ترابها
مواطن أهلي ثم صحبي وجيرتي وأول أرضٍ مس جلدي ترابها

أما بالنسبة لسيادة اللواء مصطفى أبو سديرة، فقد كان "بدوي" جدّه ضابطًا في الجيش وكان أبناء رفاعة الطهطاوي "بدوي" و"علي" تلميذيه وتخرجا على يده وظل "علي" الابن الأصغر مساعده حتى موت أبيه رفاعة الطهطاوي، وحين كان رفاعة الطهطاوي مشرفًا على مجلة "روضة المدارس" كان ابنه "علي" رئيس تحرير هذه المجلة، وعندما كان بدوي يوزباشي في الجيش أمره والده بالخروج من الجيش والذهاب إلى طهطا لكي يرعى

الأملاك هناك، وبالفعل ذهب إلى طهطا وكان رجلاً طيبًا متواضعًا ومحبوبًا وكان صديقًا لجدي، وتوفي في ١٩٠٨. ومن المواقف الطريفة التي تُروى عن "بدوي" أنه عندما كان في القاهرة ذهب إلى الحلاق في إحدى المرات، فاستهتر به الحلاق و لم يقم بالمطلوب على أكمل وجه، وبعدما انتهى الحلاق من عمله فوجئ به يعطيه جنيهًا ذهبيًّا وكانت أجرة الحلاق في ذلك الوقت تعريفة، وعندما ذهب إليه مرة أخرى استقبله الحلاق استقبالاً عظيمًا وأكرمه غاية الكرم ولكن بعدما انتهى فوجئ به يدفع له مليمًا واحدًا قائلاً له إن هذا المليم هو أجرة الحلاقة السابقة والجنيه الذهب هو أجرة هذه الحلاقة. هذه القصة من التراث الشفهي الذي أحترمه كثيرًا.

ويُقال إن رفاعة ولد في ١٥ أكتوبر ١٨٠١ ولكن هذا التاريخ افتراضي؛ فحين وُلد لم يعلم أحد أنه سيكون ذا شأن عظيم، وعندما أصبح عالي الشأن سأل البعض والدته عن يوم مولده فقال أخواله إنه ولد يوم خروج الحملة الفرنسية والتي غادرت ميناء الإسكندرية يوم ١٥ أكتوبر ١٨٠١ فاعتبر هذا تاريخًا تقديريًّا لميلاده بناءً على ما ذُكر، أما بالنسبة لتاريخ وفاته فهو ثابت في ٢٧ مايو ١٨٧٣ في بيته في المَهْمَشة (الشرابية الآن) بالقاهرة، ودُفن بمدافن البساتين في الأزهر. وقد أصدر رفاعة الطهطاوي أربعة وعشرين كتابًا، ويعتبر كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" من أهم كتبه، والإبريز هو الذهب ويقصد أنه يستخرج خلاصة الذهب في وصف رحلته في باريس، ولهذا الكتاب اسم آخر غير مشهور وهو "الديوان النفيس في إيوان باريس"، ويُعتبر هذا الكتاب من باكورة إنتاجه الفكري، فقد ذهب مع البعثة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وعاد منها وهو في حوالي الحادية والثلاثين. وعندما رجع رفاعة من باريس، عُيِّن مساعدًا إداريًّا لكلوت بك بكلية الطب، وكان راتبه وقتها اثني عشر جنيهًا وثلاثة وعشرين قرشًا، وبعدها بقليل، التحق بمدرسة المدفعية التي سيصبح عميدها لاحقًا، فحصل على رتبة النقيب وزاد مرتبه خمسة جنيهات، فأصبح سبعة عشر جنيهًا وثلاثة وعشرين قرشًا، ثم أصبح أميرالاي، وعُيِّن ناظرًا للمدرسة الحربية بمرتب مائة وثلاثين جنيهًا في الشهر، وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت. أما بالنسبة للأطيان فقد كان له ثمانمائة فدان كمكافآت قُدِّمت له عن ترجمته لبعض الكتب؛ فقد منحه محمد علي باشا مائتي فدان ومنحه سعيد باشا مائتي وخمسين فدانًا كما منحه الخديوي إسماعيل مائتين وخمسين فدانًا، وقبلهم كان إبراهيم باشا قد منحه حديقة من أجود حدائق القاهرة بمساحة ستة وثلاثين فدانًا. ثم اشترى رفاعة نفسه تسعمائة فدان، وكانت له الكثير من العقارات والأطيان في الكثير من بلاد مصر، كما كان لديه العديد من العبيد والأرقاء والسكرتارية والمساعدين، وقد أعتق عددًا كبيرًا من الأرقاء وتكفل بهم حتى وفاته، فكان يرسل لهم راتبًا شهريًّا وكساءً وغير ذلك من المساعدات، لقد كان رفاعة الطهطاوي رجلاً سخيًّا إلى أقصى الحدود. ومن مواقف رفاعة أيضًا أن ابنه "علي" كان يعمل تحت رئاسته في ديوان المعارف، فكتب الابن لوالده

الرئيس طالبًا زيادة راتبه، فرفض رفاعة وأشر على الطلب بالعبارة التالية: "إن الزيادة الأخيرة صُرف عنها النظر كسائر الزيادات المستجدة، وبقي الراتب كما هو وهذا بالنسبة للموقف الحالي ميزة، والزيادات مرهونة بأوقاتها."

وقد زار رفاعة الإسكندرية لأول مرة عام ١٨٢٦ عندما كان في طريقه للبعثة، ثم جاءها زائرًا مرة أخرى عام ١٨٤٦، ولديه بعض الكتابات الرائعة عن الإسكندرية. وهنا أذكر بيتًا شعريًّا يقول:

والنفس راغبةٌ إذا رغَّبتها وإذا تُرد إلى قليلٍ تقنعُ

وقد علَّق رفاعة على هذا البيت فقال: هو قول من يقنع بالدون ويرضى بصفقة المغبون.

ويقول أحمد شوقي:

شباب قُنع لا خير فيهم بُورك في الشباب الطامحين

وعندما أحاضر في ندوات أواجه إشكالية في هذه الأبيات؛ إنني أريد تشجيع الطموح، ولكنني في الوقت نفسه لا أريد أن أهين القناعة، فالقناعة قيمة في حد ذاتها وهي كنـــز لا يفنى كما يقولون، ومن الطبيعي أن تكون الغالبية قنوعة – وهو الواقع – مع تواجد قلة من الطموحين يستطيعون تحقيق طموحهم، وبالطبع لا أقصد تحقيق الطموح عن طريق خطأ مثل سرقة بنك أو قتل شخص غني مثلاً، وهكذا أجدني غير قادر على الجمع بين البيتين السابقين، وأرى أن الشاعر لم يخطئ في قوله السابق لأنه يقوم بعملية تشخيص، لكن تعليق رفاعة هو ما أغضبني، وبالطبع كان من الواضح أن رفاعة طموحٌ جدًّا وقد حقق طموحه بأحسن ما يمكن وهذا هو إشكال البيت.

ورجوعًا إلى أشهر كتب رفاعة؛ فقد كان كتاب "المرشد الأمين للبنات والبنين" من أواخر كتبه، وقبله كان كتاب "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية"، أما عن آخر كتاب له، والذي لم يطبع خلال حياته فهو كتاب "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز"، ولم يكن هناك شخص قبله بأربعمائة عام كتب عن السيرة النبوية، وكان ينشر هذا الكتاب فصولاً منفصلة في مجلة "روضة المدارس"، وعندما توفي، جمع ابنه المقالات المنشورة وغير المنشورة وقام بنشر هذا الكتاب. لرفاعة كذلك كتابٌ عن الأنثروبولوجي، ولم يكن أحد في مصر

وقتها يعرف هذا العلم، وهو كتاب "قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر"، وهو مترجم عن الفرنسية ويتحدث عن العادات والتقاليد عند الشعوب، كما أصدر كتابًا في السودان وهو "مواقع الأفلاك في وقائع تليماك" وكان عبارة عن رواية فرنسية قرأها في فرنسا على غرار كتاب "كليلة ودمنة" الذي يعلِّم فيه الفيلسوف بَيْدَبا الملك بطريقة غير مباشرة حتى لا يغضب الملك عليه بأن يأتي له بقصص على ألسنة الحيوانات وكأنها معادل موضوعي.

أما عن فترة تواجده في السودان، فقد أغلق الخديوي عباس الأول مدرسة الألسن في عام ١٨٥٠ وأمر رفاعة بالذهاب إلى السودان بحجة فتح مدارس هناك، ولكن المقصد الحقيقي للخديوي كان إبعاد رفاعة الطهطاوي عن مصر، وفي السودان، ترجم رفاعة رواية "القسيس فينلون" التي كتبها لكي يعلم ولي العهد ابن لويس السادس عشر بطريقة غير مباشرة، وهذا كان حال رفاعة، فقد أراد أن يعلم الخديوي بطريقة ملتوية أيضًا فترجم هذه الرواية، لكن الخديوي مات و لم يستفد من هذا الكتاب، وكما نعلم، لم يمت الخديوي عباس الأول ميتة طبيعية، بل قُتل على يد اثنين من عبيد عمته؛ فقد كان سائرًا في دربٍ يمحو به ما أنجزه جده محمد علي باشا.

وعن رفاعة الطهطاوي يقول تلميذه صالح مجدي: "مجلسه مجلس مسرات وأفراح فيه من لطيف المزاح من يشهد له برقة المزاج، وكان رفاعة كريمًا وسمحًا، أعتق الكثير من الأرقاء من الذكور والإناث، وكان يصل رحمه ويغدق عليهم ويزور أهله في طهطا دائمًا ويقضي حوائج الناس وخدم كثيرًا من أبناء طهطا وكان سبب نعمتهم". ويحلل عبد الرحمن الرافعي في كتابه "عصر محمد علي" سبب عدم حصول رفاعة الطهطاوي على لقب الباشا وعدم توليه الوزارة بقوله: "بما اتصف به رفاعة من الشمم والإباء فإن هذه الصفات على كونها من أسمى الفضائل ليست محببة إلى الرؤساء وولاة الأمر فلا ترغبهم كثيرًا في أصحابها ولا تميل بهم إلى إسناد المناصب الرفيعة".

وأعود مرة أخرى إلى شعر رفاعة؛ ففي السودان لم ينشئ رفاعة أية مدرسة خلال أول عامين من إقامته، إنما أنشأ صالونًا ثقافيًّا، وجاء إلى هذا الصالون كثير من سفراء الدول ومثقفي السودان حتى أن "بيرد" سفير أمريكا في ألمانيا كان يزور رفاعة في هذا الصالون. ويحكى أن هذا السفير كان ذاهبًا إلى مصر فأرسل رفاعة معه رسالتين؛ واحدة إلى ابنه بدوي في طهطا والأخرى لصديقة السفير الإنجليزي في القاهرة، وبالفعل سافر "بيرد" إلى طهطا، ويوجد لدي وصفٌ لزيارته هذه وكيف قابله بدوي وكيف كان يتمتع هذا الشاب بالرجولة والكرم مثل والده.

لم يجمع رفاعة أشعاره في ديوان خاص على الرغم من تناثرها في معظم كتبه، لكن صديقي الحميم الدكتور طه وادي رحمه الله – وكان أستاذًا في الأدب بجامعة القاهرة – تقصى هذه القصائد في كل أعمال رفاعة الطهطاوي، وأصدر كتابًا بعنوان "ديوان رفاعة الطهطاوي". وعندما أقمنا احتفالية رفاعة الطهطاوي في طهطا عام ١٩٥٨، كان هناك أستاذ للعلوم في طهطا اسمه محيي اختار بعض الأبيات من قصيدة لرفاعة ولحنها وقمنا بإنشادها في طابور الصباح يومها، وأذكر بيتين من هذه القصيدة:

ننظّم جيشنا نظما عجيبًا يعجز الفهما
بأسْدٍ ترعب الخصما فمن يقوى يناضلنا
مدافعنا القضا فيها وحكم الحتف في فيها
وأهوئها وجافيها تجود به معاملنا

وكان هنا يشير إلى مصانع السلاح التي أنشأها محمد علي. أيضًا نظم رفاعة بعض الأبيات في وصفه لأفراح أنجال الخديوي إسماعيل الذي أقام احتفالاً زوَّج فيه خمسة من أبنائه في ليلة واحدة: الأمير توفيق ولي عهده الذي أصبح بعد ذلك الخديوي توفيق، والأمير حسن كامل، والأمير حسين كامل الذي أصبح سلطانًا لمصر عام ١٩١٧، والأميرة زينب، والأميرة فاطمة، وقد حضر رفاعة الطهطاوي هذا الاحتفال، وشاهد الأمراء والرقص والموسيقى الغربية فكتب هذه الأبيات*:

رياضة رقص في كمال منـــزّهٍ عن الريب موزون على التم والتك[٣]
وكم من فتاة فيه سكرى بلا طلا[٤] يراقصها السنبور لطفا مع السّبك[٥]
وفيه صفيّ البال بالرقص مغرم يقول لذات الخال لا بد لي منك
ولولا الحيا والدين والعلم والتّقى لقال حليف الزهد قد طاب لي هتكي

* لنلاحظ الظُرف وخفة الدم

[٣] التم والتك: صوت الإيقاع

[٤] بلا طلا: بلا خمر

[٥] السّبك: الإتقان

كتب رفاعة هذه الأبيات حين رأى جمال هذا الاحتفال وهذا يرينا أنه كان كما يُقال بالعامية "ابن حظ". وسوف أكتفي بهذا القدر، فالحديث عن رفاعة الطهطاوي يحتاج إلى الكثير والكثير من الوقت. وفي الختام أطالب بجمع جميع مقالاته في (الوقائع) و(روضة المدارس) في كتاب،كما أرى أن تاريخ بعثة رفاعة الطهطاوي هو بداية العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا، وشكرًا لرفاعة الذي علمني أن أكون نافعًا عندما آمنت بقوله (يقول المرتجي أن يكون لوطنه خير نافع، رفاعة بدوي رافع) فحاولت أن أنفع الناس.

محمد سليمان:

نشكر الأستاذ صبري أبو علم على محاضرته الثرية، والآن نفتح باب المناقشة والحوار.

مصطفى عبد الرحيم:

بدايةً أشكر مكتبة الإسكندرية على إقامة هذه الندوة عن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، كما أشكر الأستاذ صبري أبو علم على هذا العرض الشيق والمعلومات الجامعة عن رفاعة الطهطاوي. وعندما أتحدث عن رفاعة أجد ما يجذبني إلى هذه الشخصية، وكنت لا أعلم عنه إلا بعض الأقاويل و لم أقرأ له إلا كتابًا واحدًا وهو الكتاب الذي تحدث فيه عن باريس، لكنني استنتجت بحكم وظيفتي كخبير إستراتيجي أن رفاعة كانت له رؤية إستراتيجية في عدد من الأمور؛ أولها القانون ثم الصحافة والمرأة وحقوق الإنسان والبيئة وغيرها كثير. كذلك أشير إلى قيامه هو وتلاميذه بترجمة ألفي كتاب، في حين أنه خلال اثني عشر قرنًا ترجمت جميع الدول العربية ألف كتاب فقط، كما قام بتأليف أربعة وثلاثين كتابًا في مختلف المجالات من الطب والهندسة والطُبجية أو المدفعية والأدب والتاريخ والجغرافيا والقانون والفلسفة والتربية والأخلاق والشريعة والفقه والسياسة. وقد أعلنت وزارة الثقافة مؤخرًا عن جائزة رفاعة الطهطاوي للترجمة ومقدارها مائة ألف جنيه وشهادة تقدير وميدالية تذكارية، وأخيرًا علمنا فائدة الترجمة.

أما عن مكتبة رفاعة الطهطاوي فإن بها ١٠٣٧ مخطوطة و١٤٧٧ عنوانًا، وهي مجموعة عتيقة أشهرها مخطوطة "الفصيح في اللغة" لأبي العباس بن يحيى والتي كتبت قبل ١١٣٠ سنة، كذلك مخطوطة "رسائل محمد بن يوسف الأنطاكي"، و"تاج العروس لتهذيب النفوس" لابن عطاء الله السكندري، ومجموعة خاصة لرفاعة تضم مؤلفاته، كما تضم جغرافية بلاد الشام ومختصر أعمال البيان وأعمال أستاذه الشيخ حسن العطار، وكل هذه المخطوطات أصابتها بقع فطرية شديدة نتيجة تعرضها للرطوبة كما ظهرت بها بعض البقع الدهنية والكيميائية

ووُجِدَ ببعضها إصابات حشرية وتآكل نتيجة وجود قوارض، إن هذا التراث ليس تراث رفاعة فقط، إنما هو تراث هذا البلد.

محمد سليمان:

أود التعليق على جزئية المخطوطات التي قمت سيادتك بذكرها؛ فبالفعل تمت فهرسة جميع مخطوطات رفاعة رافع الطهطاوي عن طريق جامعة الدول العربية بمعهد المخطوطات وظهرت في جزأين، لكن وزارة الأوقاف وضعت يدها على جميع المخطوطات الموجودة حاليًّا في الجوامع فلم يعد لنا سلطة عليها، حيث كنا نعمل في المعهد الديني، ولا توجد أية مشكلة في ترميم هذه المخطوطات في المكتبة.

متحدث لم يذكر اسمه:

هل توجد علاقة بين الشيخ رفاعة الطهطاوي وبين جامعة أتباع الكونت هنري دي سان سيمون؟ وإن وُجدت هذه العلاقة، فما هي الدروس التي استفاد منها رفاعة؟

محمد سليمان:

الذي أعلمه أن الكونت هنري دي سان سيمون توفي عام ١٨٢٥، ووصل رفاعة الطهطاوي إلى باريس عام ١٨٢٦ فهما لم يلتقيا، وإنما التقى رفاعة بتلاميذه بالمدرسة العسكرية الهندسية بباريس، كما أعلم أن فكر هذه المدرسة متجه إلى الاشتراكية ولكني لا أعتقد أن رفاعة الطهطاوي تأثر بالفكر الاشتراكي.

محمود الملاح:

لدي الكثير والكثير عن طهطا وعن رفاعة الطهطاوي، ولكنني سأكتفي بذكر قصة تغيير اسم مدرسة طهطا الثانوية إلى مدرسة رفاعة الطهطاوي الثانوية؛ ففي أواخر عام ١٩٥٧ كنت أعمل بمدرسة رفاعة الثانوية، وكان يرأسها في ذلك الوقت أستاذي الجليل عبد الله الحوفي رحمه الله وهو سكندري مثلي وكانت له ميول تنويرية وأفكار تقدمية، كما كان صديقًا لمدير مديرية التعليم بسوهاج، كذلك كان لهذا المدير أنشطةٌ كثيرة؛ فقد قام بزيارة المدرسة في يوم من الأيام وكنت في المدرسة في حوالي السابعة صباحًا، ففوجئت بزيارة المدير واستقبلته بما يليق به، وبعد دقائق حضر الأستاذ عبد الله الحوفي ناظر المدرسة، فاجتمعنا نحن الثلاثة وتناقشنا وتحدثنا في كثير من الأمور، وفي أثناء الحديث اقترح الأستاذ عبد الله الحوفي أن يتغير اسم المدرسة من طهطا الثانوية إلى مدرسة

رفاعة الطهطاوي الثانوية، فاستحسن المدير هذا الاقتراح وقرر أن يقيم حفلاً عظيمًا يحيي فيه ذكرى رفاعة الطهطاوي ويغير اسم المدرسة. وبالفعل أقيم هذا الحفل الذي تحدث عنه الأستاذ صبري أبو علم، وكان من المفترض أن ألقي قصيدة في هذا الحفل، ولكن للأسف لم أستطع قراءتها وذلك لحداثة سني ولكثرة الأدباء والعلماء العظام الذين تواجدوا خلال الحفل، فاسمحوا لي أن أقرأ بعض الأبيات من هذه القصيدة التي كان من المفروض أن ألقيها في هذا الحفل منذ أكثر من نصف قرن:

قل في صعيد مصر ما تشاءُ فشيمته التفرد والذكاء
أخلاق رجاله أخلاق جندٍ وأبرزها الشهامة والإباء
أرق الناس إحساسًا وقلبًا ولا ينئيك عنهم جفاء
رواده مصابيحٌ بمصر فمن طهطا ومن أسوان جاءوا
إذا حلّوا بأرض عمّروها وإذا اشتد الظلام بها أضاءوا
ألم يأتِ من المنيا عميدٌ أدباء مصر بنوره استضاؤا
من هائم بأنوار الجديد وبالتراث فعاد له الرواء
شعراؤه تميزوا بشعر للنيل وللربيع له انتماء
ولو للشعراء مائدة لكانوا هم الطعام فيها والحساء
ولا أحصي نجومك يا صعيد لئلا تسخر منيَّ السماء
وعن سليل الأزهر ابن طهطا يحلو الحديث وينتعش اللقاء
نادى بكل رقيٍّ للبلاد يا حبذا المنادي والنداء
لولا رفاعة ما اكتملت بمصرَ حضارةٌ ولا علا بناء
من هنا نحني له الرؤوس به التقدم سار والارتقاء
فلم ينظر لماضيها وقال: تخلف مصر والموت سواء
وإذا اكتفت بماضيها الشعوبٌ إزْورّ عن مزارعها النماء
وإذا نامت عن السعي تموت فليس ينفع نوم أو غطاء
رفاعة لا يزكّيه ثناء بعض الثناء هراء أو رياء
رفاعة خير من أعطى لمصر وليس لمثل عطاياه عطاء

صبري أبو علم:

إنني أعتبر هذا موقفًا دراميًّا؛ فهذه القصيدة كُتبت منذ أكثر من واحد وخمسين عامًا، و لم يتمكن صاحبها الأستاذ محمود الملاح من إلقائها في وقتها لحداثة سنه، فمد الله تعالى له العمر وألقاها في مكتبة الإسكندرية.

سعيد زلط:

نرحب جميعًا بالشاعر السكندري الموهوب الأستاذ صبري أبو علم. بدايةً، بالنسبة لميراث البنات، فحاليًّا يتم الإعداد لصدور قانون حق الميراث للبنات حلا لمشكلة حرمان الإناث من حقهن في الميراث في الصعيد والريف. ومن ناحية أخرى، فإنني أتساءل عن أسباب كثرة الأضواء الإعلامية على العالم العلامة رفاعة الطهطاوي فقط دون زملائه في البعثة التي أرسلها محمد علي باشا للدراسة في فرنسا، إنني أرى ضرورة التكرم بذكر أسماء الذين شاركوا في هذه البعثة التاريخية الذين لم يُذكر منهم إلا علي مبارك.

صبري أبو علم:

إن لدي انحيازًا عاطفيًّا إلى رفاعة، فنحن أولاد بلد واحد، وهو من عرفت سيرته كلها ووصلتني كل إبداعاته، أما عن زملائه في البعثة فلم يرد عنهم ذكر حيث لم يكن معظمهم في مستواه، فهو الذي ترك علامة في خدمة الوطن أكثر من كل زملائه مع تقديري لهم جميعًا فقد ترجم رفاعة الطهطاوي وتلاميذه ألف كتاب.

أما بالنسبة لعلي مبارك فلم يشارك في بعثة رفاعة الطهطاوي لأنه كان طفلاً، وقد تصديت عرضًا لأعلام هذا القرن، فذكرت علي مبارك وعبد الله فكري ومحمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم.

محمد عادل أبو الخير:

هل كانت هناك صلة بين رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني؟

صبري أبو علم:

بالطبع لا؛ فجمال الدين الأفغاني وصل إلى مصر بعد رفاعة الطهطاوي، حيث توفي رفاعة عام ١٨٧٣ وظهر جمال الدين الأفغاني في أواخر عهد الخديوي إسماعيل الذي نفي عام ١٨٧٩.

متحدث لم يذكر اسمه:

هل من سبيل لنشر المخطوطات التي بحوزة وزارة الأوقاف وخروجها إلى النور؟

محمد سليمان:

بدأت مكتبة الإسكندرية الخطوة الأولى في فهرسة هذه المخطوطات حيث تمت فهرسة جميع هذه المخطوطات، وهذه بداية تفتح الآفاق للباحثين، ولكن بالنسبة إلى النشر فستكون هناك مشقة حيث إنها تحتاج إلى عملٍ مضنٍ، وفي ذات الوقت هو عمل قليل الشهرة، والكثيرون يبتعدون عن هذا المجال.

شيماء عرفات:

يعتبر كتاب "عمائم ليبرالية في ساحة العقل والحرية" للدكتور رفعت السعيد كتابًا بسيطًا في حجم راحة اليد، لكنَّ به معلومات قيمة عن الشيوخ الذين بدأوا حركة التنوير في مصر ومنهم الشيخ رفاعة الطهطاوي، ويثير هذا الكتاب فكرة وهي أن رفاعة الطهطاوي هو أول من دعا إلى الليبرالية في مصر؛ فهو من ترجم كلمة "ليبرالية" إلى كلمة الحرية، وكانت له رؤية إستراتيجية في بداية الخطوات التي كان يقوم بها حيث لم يعرض على محمد علي ترجمة الدستور الفرنسي لعلمه أن محمد علي لن يقتنع بشيء من هذا القبيل في ذلك الوقت، بل قام بتأجيل ذلك حتى قام به في عهد الخديوي إسماعيل، وبدأ بنشر مجلة "الوقائع المصرية" باللغة العربية في الصدارة ثم باللغة التركية، واهتم في ذات الوقت بمدرسة الألسن لعلمه بأهمية التعليم.

صبري أبو علم:

حديثك يتضمن السؤال والإجابة في ذات الوقت، وبالنسبة للدكتور رفعت السعيد، فقد أراد التعريف بأكبر عدد من الشيوخ الخريجين من الأزهر الذين ذهبوا إلى أوروبا ونقلوا لنا الفكر التنويري، وكان من ضمنهم الشيخ محمد عبده الذي ذكر عند ذهابه إلى فرنسا جملتين ملخصتين من أروع الأفكار وأعمقها، فقد قال: "رأيت إسلامًا بلا مسلمين وهنا مسلمون بلا إسلام"، كما قال: "أخلاقهم ديننا". إن ديننا يحثنا على الاجتهاد والأمانة والإخلاص والوفاء، لكن سلوكنا غالبا يكون على خلاف ذلك. ولكي يكتب الدكتور رفعت السعيد عن عشر شخصيات في كتاب صغير كهذا، فقد كان من الطبيعي أن يمر عليهم سريعًا بقصد تعريف القارئ بهذه الشخصيات.

أما عن كون رفاعة الطهطاوي أول ليبرالي، فهذا ما نراه أمامنا، فهو أول من كتب في الليبرالية، وفي كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" يتناول حقوق الشعب والمواطنين وحقوق الملك وواجباته، وقد أعجب محمد علي بهذا الكتاب وأمر بطباعته وتوزيعه في المصالح والدواوين والجيش، ولم تغضبه أي من الأفكار المذكورة فيه، ولكن بدأت المشكلة عند إعادة طباعة هذا الكتاب في عصر الخديوي عباس الأول، وهنا يظهر أثر من يطلق عليهم بالعامية "الألاضيش" وهم مجموعة من الناس يكرهون رفاعة الطهطاوي ويحسدونه على المجد الذي حظي به، فلدى معرفتهم بما في كتابه من أن الملك مثل المواطن في الحقوق والواجبات، أوغروا صدر الوالي عليه، فأمر الوالي بوقف طباعة هذا الكتاب وبنفي رفاعة إلى السودان. لقد كان رفاعة الطهطاوي بالفعل أول ليبراليّ، وقد كان موجهًا ومرشدًا ومن أقواله: (يجب أدبًا لمن يجمعهم وطن واحد، التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن وإعظامه وغناه، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية، وهي تكون بين أهل الوطن على السوية، ومتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض، واحتقار، لتثبت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيهم السعادة). ودعوته لتحرير المرأة دعوة متضمنة بين دعوات أخرى، والفرق بينه وبين قاسم أمين أن الأخير كرّس مجهوده كله في قضايا تحرير المرأة.

سعيد عبد الفتاح:

لماذا لا نسير على درب المترجم العظيم رفاعة الطهطاوي وتتبنى المكتبة مشروعًا لترجمة أمهات الكتب العلمية والتقنية على أن تكون هناك جوائز قيمة في مقابل ذلك؟

محمد سليمان:

أعلم أن الدكتور جابر عصفور مدير المركز القومي للترجمة قد بدأ بالفعل بالقاهرة في تولي هذه المشروعات، وهو في بداية الطريق ولكننا نتوقع منه الخير.

صبري أبو علم:

لقد تراجع مشروع رفاعة الطهطاوي للترجمة والذي كان مشروعًا تنويريًّا وحضاريًّا، ونحن اليوم نقاوم الذين يقاومون هذا المشروع، والملحوظ أن هناك ردة في المجتمع وتراجعًا واضحًا عن التقدم.

وأود أن أختم الندوة بهذه القصيدة التي يهاجم فيها رفاعة الطهطاوي الخديوي عباس الأول والتي لم يسمعها هذا الأخير:

رحلت بصفقة المغبون عنها[٦] وفضلي في سواها في المزاد
وقد فارقت أطفلاً صغاراً بطهطا دون عودي واعتيادي
أفكر فيهمُ سرًا وجهرًا ولا سمري يطيب ولا رقادي
أريد وصالهم والدهر يأبى مواصلتي ويطمع في عنادي
وما خلت العزيز[٧] يريد ذلي ولا يصغي لأخصام لراد
لديه سعوا بألسنة حداد فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل[٨] خادعوني وهل في حبرهم يكبو جوادي؟
وزخرف قولهم إذ موّهوه على تزييفه نادى المنادي
خدمت بموطني زمنا طويلا ولي وصف الوفاء والاعتماد
فكنت بمنحة الإكرام أوْلى بقدر للتعيّش مستفاد
وغاية مطلبي عوْدي لأهلي ولو من دون راحلة وزاد
وصبري ضاع منذ اشتد خطبي وهون الخطب عند الاشتداد
لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي[٩]
فيا حسن[١٠] الفعال أغث أسيرًا بسجن الزنج يحكي ذا القياد[١١]
عليه دواشر الأسواء دارت وطالت وفق أهواء الأعادي
وقد فوّضت للمولي أموري وذا عين الإصابة والسداد
وما نظم القريص برأسمالي ولا سندي أراه ولا سنادي

[٦] عنها: عن مصر
[٧] العزيز: والي مصر عباس حلمي الأول
[٨] مهازيل الفصائل: خصومه الذين لا فضل لهم
[٩] يستشهد بقول الشاعر ليتهم الوالي بأنه جثة هامدة
[١٠] فيا حسن: يوجه الحديث لصديقه حسن كتخدا محافظ القاهرة
[١١] ذا القياد: الحيوان

محمد سليمان:

في النهاية، نشكر الأستاذ صبري أبو علم على محاضرته الرائعة والتي زودتنا بالكثير من المعلومات، وإلى لقاء قادم في منتدى الحوار.

الملاحق

ملحق رقم (١)

الصورة المتخيلة لرفاعة الطهطاوي وهو بالزي الإفرنجي
للفنان محمد العيسوي

ملحق رقم (٢)

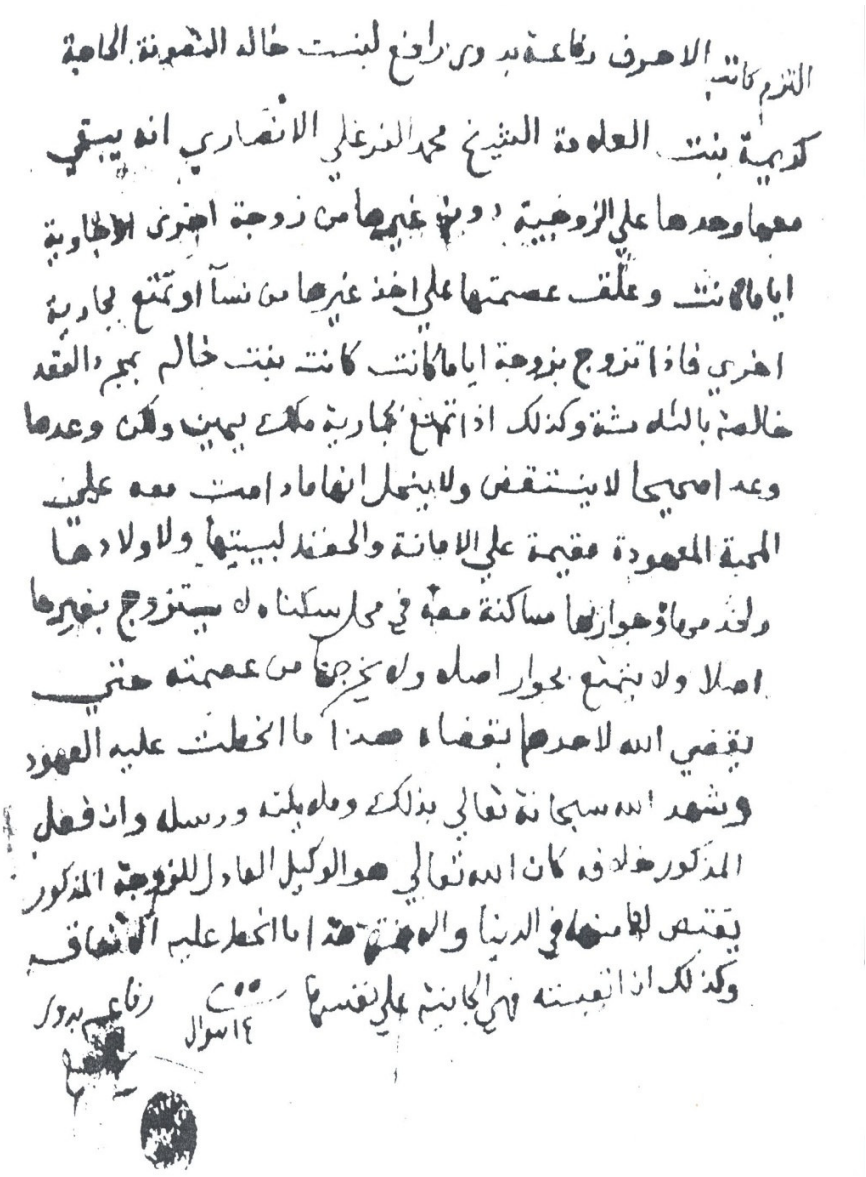

صورة وثيقة زواج رفاعة الطهطاوي بخط يده

ملحق رقم (٣)

قائمة ببعض المصطلحات التي أدخلها رفاعة الطهطاوي إلى اللغة العربية

- البحر الأبيض المتوسط : أضاف الأبيض تشفيًا في تركيا التي لديها البحر الأسود
- القطار : بدلاً من عربات السكة الحديد، والقطار هي قافلة البعير والقاطرة هي الجمل القائد
- أنتيكة : الآثار القديمة
- التلغراف : الإشارات البرقية
- جورنال : صحيفة
- الميثولوجيا : الأساطير
- تياترو : مسرح
- الأكاديمية : مدارس العلوم
- نمرة : رقم
- الميكانيكا : علم الحِيَل (الهندسة)
- بولوتيكا : السياسة
- رستوران : مطعم
- البال : المرقص (حفل الرقص)
- إنستيتيوت :معهد علمي
- ترمومتر : ميزان الحرارة
- ميكروسكوب : المنظار المكبر
- اعتدال : في الجغرافيا تساوي زمن الليل والنهار
- أنف : لسان من الأرض في البحر
- بحر محيط : أوقيانوس: بحر محيط بالأرض
- بحيرة
- بركان
- بوغاز : معبر مائي

- تيار : حركة الماء
- جونة : جزء من البحر داخل في الأرض
- خط الاستواء : خط وهمي يقسم الأرض شمالاً وجنوبًا
- سيارة : أجرام سماوية
- طبوغرافيا : وصف سطح الأرض
- أطلس : خرائط
- كمبانية : شركة
- اسبتاليا : مستشفى
- بقشيش : إكرامية
- زغروده : صوت للتعبير عن الفرح
- سراية : قصر
- صرماتي : مصلح أحذية
- قبطان : ضابط بحري
- كومندان : قائد سفينة
- كرنتينة : حجر صحي
- المونة : تستخدم في البناء
- ورش
- المينا : الثغر
- نياشين : أوسمة